

## مصائب مصر والشام

### رجال العلم وحملات الاقلام

اكبر مصائب البلاد موت العلماء والادباء والكتاب الذين يغذون العقول ويزكون النفوس بالتعليم والتصنيف ونشر العلوم والآداب . وقد رزقت الديار المصرية والسورية في هذه الأيام بوفاة اربعة كهول من اشهر رجالهما في علوم الدين والدنيا واللغة ، يعدون من عوامل التحول والاقبال الاجتماعي في الامة العربية . وهم احمد فتحى باشا زغلول المصري والشيخ حسن المدور والشيخ محي الدين الخياط البيروتيان - والشيخ جمال الدين القاسمي دمشقي

#### ١ - احمد فتحى باشا زغلول

في آخر يوم من الشهر الماضي شيعت مصر جنازة نابغة العرب فيها صديقنا احمد فتحى باشا زغلول ، وشعر كل ذى بصيرة فيها بأنها فقدت رجلا لا خلف له في مواهبه ومزاياه

ولد الفقيد لليلتين او ثلاث خلت من شهر رمضان ١٢٧٩ ( الموافق اول شهر الشتاء الثاني سنة ١٢٤١ هجرية شمسية - ٢٢ فبراير ١٨٦٣ م ) والده من بيت كريم ينتمي الى بعض قبائل العرب التي استوطنت القطر المصري ، ووالدته من بيت كريم يسمى بيت بركات وهما من قرية من قرى مديرية الغربية اسمها ( إيبان ) وكان والده سماه ( فتح الله صبري ) ثم غير اسمه ناظر المعارف فسماه باسمه ( احمد ) لما ظهر له من نجابته ، ولقبه بفتحى للإشارة الى اسمه الأول . وتلقى التعليم الابتدائي والوسط في مدارس الحكومة بمصر والاسكندرية ، واختار له ناظر المعارف ان يتلقى التعليم العالي في فرنسا ، فكان في مدارس التعليم كلها آية الذكاء والاجتهاد . ولما عاد من اوربة دخل في خدمة الحكومة في النيابة والقضاء حتى صار رئيسا لمحكمة مصر الاهلية ثم وكيلًا لنيابة الخفائية ، وتال مانال من رتب الحكومة واوسمتها العالية ، وكان العارفون يجزمون بأن ترقيه دون استحقاقه واستعداده . فهل هذا هو احمد فتحى باشا زغلول ؟

تعلم في مدارس مصر واوربة ألوف ، عاش اكثرهم ومات كما يعيش ويموت الملايين من الجهلة والمعمولين ، وتقلب كثيرون منهم في مناصب الحكومة واعمالها . وما كل واحد منهم يستحق ان يترجم في الصحف ويخلد اسمه في دواوين التاريخ ، اللهم الا تواريخ المنافقين الذين يعظمون كل صاحب منصب او ثروة وان لم يكن

له أثر يذكر، او منقبة تؤثر، الا جمع المال واقتناء العقار، والتعالي على الناس ولو بالظلم والافساد.

احمد فتحي زغلول ذلك الرجل الذي شهد له كل ذي علم وفهم في مصر بانه بذو الافران، وكان المعجلى من حلبة المدينة في كل ميدان، لم يجمع مالا، ولم يتأثر عقارا، ولم يترك درهما ولا دينارا، وانما كان هو ذلك الرجل لما آناه الله من الذكاء واللوزعية، والعقل والروية، والهمة العلية، وما تربى عليه من ملكة الاستقلال، وما اكتسبه من العلوم وما احسنه من الاعمال.

خلق احمد فتحي زغلول كبير الاستعداد، آناه الله فؤاداً ذكياً، وزهدنا لوزعياً، والأذكياً في أمتنا العربية كثيرون، فان كان حظ هذا الرجل من الذكاء عظيماً فكم من عظيم الذكاء اطفأت التربية السوءى والبيئة الفاسدة نور ذكائه، وهدمت ما بنته الفطرة من قوة استعداده؛ وكم من ذكي وجهت القدوة السوءى ذكائه الى ما يضره او يضر أمته كلها، وقد اتفق لهذا الذكي اللوزعي ان نبت في بيئة خاصة، مثل فيها امام عينيه من اول العهد بالتمييز إمام الإصلاح في هذا الزمان، ومن حوله من المردين والاخوان، الذين لم يكن لهم سمر ولا حوار، الا في شؤون التربية والإصلاح، فكان يرى منذ عهد التعليم الابتدائي الاستاذ الامام متجلياً في فضائله وحكمته، والشيخ عبد الكريم سلمان متجلياً بأدابه وفضته، واخاه (سعداً) معتصماً باستقلاله وحقته، مع أتراب لهم من مردي السيد جمال الدين حكيم الاسلام، وخليفته الاستاذ الامام، وكل في فاك العلم والحكمة يسبحون، وحول قطب الإصلاح وتجديد حياة الأمة يدورون، فلقح استعداد احمد فتحي بفكرة العمل والسعي لتجديد حياة الأمة، وحب الاستاذ الامام بعد عودته من أوربة ودخوله في اعمال الحكومة كاخيه الاكبر (سعد باشا) حجة المرید الصادق، والمرشد الكامل، فاستفاد من تلك الافكار السامية والمقاصد العالية، والفصاحة الخلابية، والبلاغة الجذابة، ما شاء الله ان يستفيد. وكان زيتة صافياً يكاد يضيء ولو لم تمسه نار، فتنصل بذلك القبس المتألق فشتعل نورا على نور.

أروي عن فقيدها النبغة كلمتين في أستاذنا الامام رحمهما الله تعالى. الاولى سمعتها منه في أول مجلس لقيته فيه؛ زار الفقيه طرابلس الشام بصحبة الاستاذ ايام كنت اطلب العلم فيها، فكانت مدة مكثهما في طرابلس ملازماً لهما من الصباح الى وقت النوم، لاني كنت اطعمت على ما صدر من جريدة (العروة الوثقى)

فعمشقت السيد جمال الدين مدير سياستها، والشيخ محمد عبده رئيس تحريرها، وصرت مريدا لهما بالغيب. وقد جئت الدار التي ناما فيها ليلة قدما فقيل لي انهما ذهبا الى حمام عز الدين، جئت الحمام فألقيت بمض العلماء والوجهاء قعودا في خارج الحمام ينتظرون مع الفقيه، والاستاذ في الداخل، فترجمني الشيخ خير الدين الميقاتي من علماء طرابلس للفقيه، وكان مما قاله: انه اكتب الكتاب عندما وهو لا يرى لنفسه استاذ في الكتابة الا الاستاذ الشيخ محمد عبده على انه لم يره. فقال الفقيه كلنا ليس لنا استاذ في الكتابة غير الاستاذ. واحسب انه فسر ذلك بان التمايز في الكتابة انما هو بالافكار واساليب التصرف في الكلام، وأن كل من يقرأ ما كتبه الشيخ او يسمع كلامه يجد فيه القدوة المثلى والمادة الغزيرة في ذلك. ولم احفظ من كلامه بنصه وقتئذ الا تلك الكلمة

واما الكلمة الثانية فقد قالها منذ ثلاث سنين اذ كنا نتذاكر في داره ببعض المسائل الاجتماعية، فذكرنا كلمة من حكم الاستاذ في ذلك فسرتها الحوادث فقال: ان كثيرا من كلام الشيخ لم يظهر لنا معناه المراد الا بعد مونه. وقد كان يقول الكلمة فنظن اننا فهمناها ثم يظهر لنا بعد عدة سنين اننا لم نكن فهمنا بعد غوره فيها، حتى كشفه طول البحث وسعة الاختبار. اه بالمعنى

تلك البيئة الاصلاحية هي التي جعلت من استعداد احمد فتحي زغلول خطيبا مفوها، كما جعلته كاتباً قديراً، فكان في مصر ثاني الاستاذ الامام في فصاحة لسانه، والتمام الفصيح في اكثر كلامه، اما الاستاذ فقد كتب الشيخ ابراهيم اليازجي في ترجمته، - وناهيك بنقده ودقته - ان كلامه الذي كان يلقيه في مجالسه العادية كابلغ ما يكتبه المترسلون المتأقنون. أقول: وناهيك به قدوة صالحة، ومربيا للملكة.

تلك البيئة الطيبة والقدوة الصالحة هي التي لفحمت ذلك الذهن الوقاد بلقاح الاستقلال، الذي به تظهر ثمرات العلوم عند القيام بالاعمال، فكانت مضطاما بالعمل بما تعلم، وكان علمه ملكة ثابتة، وصفة راسخة، وشجرة مثمرة، واكثر المتعلمين منا متقدمون، يودعون العلم بوداع المدرسة، وما عرفنا رجلا مثله كانت الحكومة تشعر بجاحتها الى علمه، وترجع اليه حتى في القوانين والاعمال التي لا تتعلق بعمله، فهو واضع اللائحة الاصلاحية للمحاكم الشرعية، وهو واضع قانون إصلاح الازهر، وناهيك بهما، وبما يتوقف عليه وضعهما، وقد اشتهر أنه كان في نظارة الحفانية الركن الركين، لوضع جميع الانظمة واللوائح والقوانين. لم تشغل الفقيه خدمة الحكومة التي كان يتقنها من كل وجه، عن خدمة الامة بالعلم والعمل، فقد كان عضوا عاملا في الجمعية الخيرية الاسلامية، وألف

وترجم عادة كتب يتبني بها الاصلاح والنهوض بالامة ، دون الكسب والثروة ، وكان اول ما اخرجته للغة العربية من نقائس مصنفات الافرنج ( كتاب أصول الشرائع ) لبنتام ، وهو كتاب جليل في فلسفة القوانين وعلاها ومداركها ، يعجز عن ترجمته من لم يكن راسخا في علوم اقوانين والفلسفة ، وسعة الاطلاع في علم اللغة ، ولو كان العلم في الامة حيا لاعيد طبع هذا الكتاب مرارا .

وكان آخر كتاب ألفه في القضاء ( شرح القانون المدني المصري ) شرحه شرح العالم المجتهد المستقل ، وتصرف في تنسيقه وترتيبه تصرف المصالح المنقح ، وغير في هذه الترجمة كثيرا من الاصطلاحات القضائية المترجمة عن اللغة الفرنسية ترجمة غير صحيحة ، فأعجبت الحكومة وجمهور رجال القضاء بهذا الشرح ، واعترفوا بشدة الحاجة اليه ، وكان هو الباعث على احفظهم بالشارح ذلك الاحتفال الذي نوهنا به في وقته وله في هذه المباحث القضائية كتاب حافل سماه ( المحاماة ) وقد بين في هذا الكتاب تاريخ المحاماة عند الامم القديمة بالاجمال وعند الامم الغربية بالتفصيل ومنه الكلام في نظامها عند هذه الامم ، والمؤتمر الذي عقد لها ، ثم افاض القول في المحاماة في مصر ، وبيان حال المحاكم المصرية وتاريخها وتأسيس الحكومة المصرية ودخولها في سلك النظام الاوربي ، واطال الكلام على القضاء فيها ، وبمد استيفاء كل ما اراده من الكلام على المحاماة وأهلها من التاريخ والنظام والقوانين والآداب وما يناسب ذلك خم الكتاب بملحقات في قوانين مصرية سابقة ولوائح وأوامر رسمية مصرية متممة للموضوع . فكانت صفحات الكتاب ٤٣٤ و صفحات التذييل ٢١٠ وله رسالة قضائية في التزوير مفيدة في بابها

وله ترجمة كتاب ( الاسلام - خواطر وسوانح ) للكونت هنري دي كاستري الفرنسي ، في رد مفتريات الصليبيين وأشباههم على الاسلام ، فقد كان هذا الكونت واسع الاطلاع في كتب المسلمين ، ونقل في هذا الكتاب من مطاعن الافرنج في الاسلام ما لم يخطر على بال مسلم في الدنيا ، وردھا واثني على الاسلام خير الثناء . وقد ترجم هذا الكتاب وطبعه في اواخر سنة ١٣٠٥ وهي التي صدر فيها المنار ، وقرظناه في العدد الحادي عشر من السنة الاولى ، ونشرنا مقدمته للترجمة العربية التي نقل الفقيد فيها نبذة من المنار . وكان غرضه من ترجمة هذا الكتاب الدفاع عن الاسلام وبيان محاسنه وتنبيه المسلمين الى ذلك

وأما السكتب التي ترجمها لغرض التجدد العلمي والمدني في مصر وسائر الامة

المرية فهي كتاب (سر تقدم الانكليز السكسونيين) في الطريقة المثلى للتربية والتعليم، لعالم فرنسي اسمه (أدمون ديمولان) وكتاب (روح الاجتماع) وكتاب (تطور الامم) كلاهما للفيلسوف الفرنسي الكبير (غوستاف لوبون) فكان غرضه من هذه الكتب بث فكرة التربية الاستقلالية والتعليم العملي في الامة، واعتماد الافراد على انفسهم لاعلى حكوماتهم (١) وتبنيها الى اسباب التحول والاقبال في الامم والشعوب، وكونه لا يحصل الا بالتدريج البطيء، وتذكيرها بالآفات والعلل الكامنة في التطورات الاجتماعية الحديثة في الافرج، كالاشتراكية والحزب والجميات السياسية والاقتصادية وغيرها. ولغوستاف لوبون مذهب خاص في هذه المباحث يخالفه في كثير من آرائه بعض علمائهم. والتاظر المستقل لا يقلد أحدا من المختلفين، وإنما يعحص المسائل ويتبع قوة الحجة والدليل

ويقال انه كان بدأ بترجمة كتاب مدينة العرب أو حضارة العرب لغوستاف لوبون أيضا، وكان الاستاذ الامام حظه على ترجمته. وآخر ما أخرجه قلمه للناس ترجمة رسالة سياسية في سوء حال الدولة العثمانية وشدة حاجتها الى تغيير وضعها ونظامها، وهي الامير مصطفى قاضل باشا زعيم الاحرار الاول في الآستانة خاطب بها السلطان عبد العزيز، ورسالة أخرى في قواعد وقضايا اجتماعية لغوستاف لوبون جعلها كالمذكرات والناشرين لما فصله في كتبه الاجتماعية. فترجمها الفقيه بالمرية وسماها (جوامع الكلم)

وقصارى القول في صفة الرجل الاجتماعية والسياسية انه حجة على كفاءة المرابي وقدرته على العلم والعمل بالنظام الاوربي كأرقى الاوربيين، لانه ركن في العمل بذلك. وأما صفاته الشخصية فقد كان حسن المعاشرة، حلوا المفاكهة، نزه النفس واللسان، يقدر على إرضاء كل جليس بغير دهان، لا يعل جليسه جده، ولا يهت بوقاره هزله، وقلما تربى في اوربة شاب مثله في عفنه وصيائه، والاعتصام من استخفاف حرية النسق لشرة الصبا وخفته. وكان دقيق النظام في كل شيء، متأنقا جد التأنق في زبه ومعيشته بلا تكلف، ولا اضاءة وقت في العبث. وأما رأيه في الاصلاح والتجديد فهو أن يبني ولا يهدم، لان الامة اذا وجدت البناء الجديد اصلح لها، تركت المباني السقيمة تسقط

(١) كتبت في منار اول الحرم سنة ١٣١٧ مقالة عنوانها (الاعتماد على النفس) فقال لي وتثبت: انني استعملت هذه الكلمة في ترجمة كتاب (سر تقدم الانكليز) الذي يطبع الآن واراك سبقتني الى استعمالها، ثم كثر استعمال هذه الكلمة بانتشار ذلك الكتاب لا بمقتني

من تلقاه نفسها ، فلم يكن يدعو الى ترك العادات الضارة ويشنع على أنصارها ، لذلك لم يظن الناس في رأيه ومذهبه كما ظنوا في صديقه قاسم بك أمين ، بل لم يكن الجمهور يعرفون ان له رأيا يرمي اليه في الانقلاب الاجتماعي . فان فهم بعض اذكياء الحزب الوطني ان ما شرحه كتاب روح الاجتماع من امر اندفاع الجماعات بغير عقل ولا شعور ينطبق على حزبهم ، فهل كان يسهل عليهم ان يظنوا بوطية مترجم الكتاب ويمدونهم خصما لهم ؟

هذا وان الفقيه قد كان ميلا الى الاصلاح الديني ، معتقدا انه شطر أو شرط للاصلاح المدني والسياسي ، وقد كان أخبرني في أوائل العهد بإنشاء المنار ان ابراهيم باشا فؤاد ناظر الحقانية معتبط بالمنار ويرى وجوب تعميم نشره بين المسلمين . وأنه هو قد سهر بذلك وتواعد مع الناظر بأخذ وسيلة لذلك يوزع بها ألوف من النسخ على طلاب العلم وقراء القراء ثمن قليل . ثم لم أراجعه ولا كتبت ابراهيم باشا في ذلك عندما كنت ألقاه وأسرع منه الثناء على المنار . ولا هما وفقا لشيء مما تحدثنا به .

ولما توفي شيخنا الاستاذ الامام تذكر أصدقاءه ومربده في عمل شيء يذكر به ، فاقترحت ان تنشأ باسمه مدرسة كلية يجمع بها بين التربية الدينية الصحيحة وتعليم العلوم الدينية والدينية على طريقته التي كان يسمى لها سعيها باصلاح الازهر ، فقبلوا الاقتراح بكل ارتياح ، وانتخبوا في دار سعد باشا زغلول لجنة لوضع نظام المدرسة مؤلفة من حسن باشا طاهر والفقيه وصاحب هذه المجلة ، فكان الفقيه مهتما بهذا ، وذاكر به لورد كرومر - كما تقتضي المصلحة - فظهر اللورد له الاستحسان . ووعده بأن يحضر له نظام وبرنامج مدرسة عليكرة الاسلامية الهنزية للاقتباس منه واستحسن ان يبدأ بالعمل صغيرا ليكبر بالتدريج . ويعلم الذين يقرؤن المنار منذ سنين ان الذي كان دون إنشاء هذه المدرسة هو ظهور مشروع مدرسة الجامعة المصرية ونوط أمرها بسعد باشا زغلول وقاسم بك أمين . وكان سعد باشا هو الركن الركين لمشروعنا فتركه للجامعة وما كان يمكن ان يشتغل به وبمشروع الجامعة معا

ولما عزمنا على السفر الى الاسكندرية منذ أربع سنين لاجل مشروع الدعوة والارشاد اهتم بذلك الفقيه اهتماما عظيما ، وجاءني ليلة من ليالي رمضان الذي سافرت فيه واقترح ان تتكلم في المشروع منفردين ، فاقفلنا باب الدار ، وظلنا نتحدث في المشروع الى ما بعد نصف الليل ، فلما شرحت له وسائله ومقاصده سر به وبالغ في استحسانه ، وواعد بأن يساعد الجمعية التي تؤسس له هناك بقدر الطاقة . وعهد اليّ

بأن أتأهده بالكتابة من الآستانة ، فكانت الكتابة بيننا متصلة في ذلك ، ولم أر  
أحداً من أصدقائي بمصر أهتم بذلك بعض اهتمامه رحمه الله تعالى  
كان سبب موته مرض ألمّ بدماعه ، سببه كثير تشكره واشتغاله ، ولا غرو فقد  
كانت قوة ذلك الدماغ اعظم من مادته ، وعمله فوق استطاعته ، وذلك منتهى أكثر  
الرجال الذين همتهم أكبر من قوتهم ، تنسى تقوّلهم حقوق ابدانهم : فيجنون على  
امتهم بجنايتهم على انفسهم ، اذ ينزعهم القدر منها ، أقدر ما كانوا على خدمتها ، فمنهم من  
ينتصر في سن الشباب ، ومنهم من ياتي مصرعه عند الاكتهال ، وبلوغ قواه كلها  
مستوى الكمال ، كن فقدنا اليوم ، ومن فقدنا بالأمس ، ورحمهم الله تعالى .

### محادثة متعصبي القبط وغيرهم للمنار

في يوم السبت في ٢١ جمادى الآخرة دعانا بالمسرة (التلفون) رئيس النظار حسين  
رشدي باشا الى داره فوافيناه فيها فاذا هو في سرير النوم لانحراف محمته ، واذا بجانبه  
جريدة مصر القبطية ، فأطلعنا عليها ، وسألنا عما تنسبه الى المنار من الطعن المعلم عليه  
بالخبر الأحمر فيها ، وملخصه أنه يجعل النصراني كلهم وثنيين وان طعنه يكاد يضرم  
نار الثورة في البلاد ؟؟ فلما قرأت : فيها قلت للرئيس : يعطوفة الرئيس ! انت قاض  
قبل كل شيء ، وقد اشتهرت في حياتك الفضائية بالاستقلال ، ومن مقتضى ذلك ان تقرأ  
الطعن الذي تشير اليه جريدة مصر ، قبل ان تحكم في المسألة بشيء . هذه العبارة التي تشير  
اليها جريدة مصر اوردها المنار كعنوان لموضوع كتاب في سياق تهر يظله . هذا الكتاب  
اسمه « نشوء فكرة الله » مؤلفه انكليزي ، وخلصه بالعربية سلامة افندي موسى القبطي ،  
وطبعه بمطبعة يوسف افندي الخازن الماروني السوري ، محرر جريدة الوطن القبطية ،  
وقرظته الجرائد والمجلات السورية والقبطية والاسلامية ، ولم يعب المترجم والناشر احد  
منها بأنه عاب النصرانية وكاد يضرم نار الثورة في البلاد ! ولكن لما قرظته مجلة  
المنار الاسلامية وذكرت ان ملخصه اثبات كون الديانة النصرانية وثنية الاصل  
- وقيدتها بالحاضرة تبرئة للمسيحية الصحيحة التي كان عليها المسيح عليه السلام  
وحواريه رضي الله عنهم - صار ذلك اكبر الجرائم المحركة للثورات والفتن ، واستحق  
صاحب المنار النفي من مصر ، واستحقت الحكومة هذا الانذار من جريدة مصر  
- اذ فيها : ان من انذر فقد اعذر - بعد الاقتراح على الحكومة ان بان تعاقب  
صاحب المنار بمثل ما عاقبت به عبد العزيز شاويش عدو القبط من سجن ونفي .  
ثم اعطيت للرئيس نسخة المنار فلما قرأ التقرير في ضحك مستغربا كتابة